اللغة في رواية إسماعيل لأحمد حرب

د. عبد الخالق عيسى

يكشفُ أحمد حرب في روايته هذه عن البنيةِ العقليةِ للشخصيةِ اليهوديّةِ من خلال استحضار التاريخ، والوقوف على المرجعية الدينية التي تُبَيّنُ بجلاء أبعاد الرؤية اليهودية في معادلة الصراع.

فإسماعيل في الرواية والواقع أبُ العرب جميعاً، وابنٌ لإبراهيم، صودر حقُّه، ونُفيت ملكيته، ليصبحَ يعقوب – المستوطن اليهودي – المالك الجديد الذي يسعى لاقتلاع الآخر، وإلغاء وجوده.

وقد اعتمد يعقوب في جدله على تعاليم التلمود التي تطوّبُ هذه الأرض لليهود، وتعتبر بقية البشر، إنما خلقوا عبيداً ليقوموا على خدمتهم، أو ليعاقبوهم إنْ انحرفوا عن الخط التوراتي.

"هذه أرضنا منذ عهد تلمود، التاريخُ يشهد، التاريخ لا يكذب وأنا هُنا لأُحقق النبوءة العظيمة، مات شلومو في حرب الأيام الستةِ في سبيل تلك النبوءةِ، لن أنسى ما أوصاني إياه، قال: إن السماء هي الأرض، والأرض هي السماء، وإنّ الجنة هُنا على هذه الأرض"[1].

وإسماعيل ابنٌ لجارية اسمها هاجر، وهذا النسب – من جهة الأم – يسلبه حقه في حمل اسم أبيه، ووراثته، ويجعله اسماً مفرداً لا يُتْبَعُ بكلمات نسب أخرى. هذا تصنيف العهد القديم، وتصنيف يعقوب الشخصية المعادلة لإسماعيل في الرواية، يقول الأول: "العرب واليهود مثل البرتقال والليمون من عائلة واحدة، لكنْ شتان بينهما في المذاق"[2].

---

[1] أحمد حرب: إسماعيل، وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، القدس، ط1، 1987م، ص43.
انظر صبيحة عودة زعرب: الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائـــي الفلـــسطيني 1967–1997م، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006، ص183.

[2] نفسه، ص47.

ويردّ إبراهيم: "ولكنهما يتغذيان من نفس الشجرة، من نفس الجذور، من نفس الأرض"[3].

وعلى الرغم من نواياهم المكشـــــوفة إلا أنهم امتلكوا أدوات الخطاب الفاعلة والمؤثرة. "جئت هنا أبحثُ عن السلام لا عن المال، جئت هنا أبحث عن قطعة أرض، عن هُوِيّة، عن الحُبِّ الضائع منذُ ألفي عام" يعقوب[4].

والناظر إلى الغلاف الخارجي للرواية سيُلاحظ وجود ثلاثة خطوط مائلة تفصل بينها مِساحة باللون البني، وهو بدوره يرمز إلى الصحراء، وثمة علاقةٌ واضحةٌ بين هذا اللون ومضمون الرواية، فقد ارتبطتْ قصة إسماعيل بالمنفى والغُربة والضياع، لا سيما وأنه اضطرَ للهروب إلى شرقي النهر.

وقبل الولوج إلى كل فصل من فصول الرواية الثلاثة يورد أحمد حرب أبياتاً من قصيدة أدونيس المعنونة بإسماعيل.

وإسماعيلُ عند حرب يكاد يكون هو ذاته إسماعيل عند أدونيس، فالثاني اضطهد، ونبذته كُلُّ قبيلة، وخرج تحتضنه الجراح، ثم أصبح خارطة العصور، والأول سُجِنَ وصودرتْ أرضُهُ، وخرج جريح القلب يبحثُ عن هُوية، وعن مكان يأويه، ثم غدا خارطة العصور، وقضية مفتوحة للأجيال.

أما مسرح الأحداث فهو قرية العين، وهي قرية وهمية لا وجود لها على أرض الواقع في محيط مدينة الخليل، والسؤال الذي يلقي بنفسه، لماذا لم يذكر الكاتب قرية لها وجود في الواقع؟ هل أراد أن تكون قرية العين هي كل قرية فلسطينية، لا سيما وأنّ الأحداث التي حصلت فيها قد تحصل في أية قرية أخرى؟

---

[3] نفسه، ص47.

[4] نفسه، ص14.

أنا أميل إلى هذا الرأي، ذلك لأن الموضوعات التي طرقها الكاتبُ، لا تخص قرية بعينها، وبالتالي فهي ليست رواية تسجيلية لأحداث خاصة، بل هي تسجيلٌ لأحداث عامة تخصّ شعباً وقضية، حصلت وتحصل في كل قرية من هذا الوطن الواسع.

مستويات الخطاب في الرواية:

يلحظ القارئ أن ثمة ثلاثة مستويات لغوية تسود في الرواية منذ مبتدئها حتّى منتهاها.

المستوى الأول: مستوى المثقف الذي يتحدث بلغة عربية فصيحة معمقة، ويمثله الكاتب وإسماعيل، وأمل، والبرفسور بوزول).

والـــثـــانـــي: مستوى الشخصية اليهودية التي تدمج بين الفصيح والعامي والعبري.

والـــثـــالـــث: مستوى الشخصية البسيطة ويمثلها: الأب، الأم، محمود الحلاق، وبقية الشخصيات الثانوية.

ففي الفصل الأول اعتمد الكاتبُ السردَ بضمير الغائب، وجاءتْ اللغةُ فصيحة ترشحُ عن وعي وثقافة وتجربة، وأنا أميل إلى اعتباره الكاتب نفسه، إذ ليس في الفصل ما يشير إلى ســـاردٍ آخر. وهو كلّيُّ المعرفة، يدخل إلى نفسيات شخصياته، ويحدثنا عما يعتمل فيها، يقول: "لماذا لم يحضر أحدٌ من الجماعة؟ تساءل في نفسه: سيحضرون إن لم يكن اليومَ فغداً".

وإسماعيل شاب مناضل دخل السجن، وذكر أنه طالع كُتباً عديدة، فجاءت لغته فصيحة، تكشفُ عن شخصية قوية، تمسكت بمبادئها، واطلعت على ثورات الشعوب الأخرى التي نالت استقلالها بعد الكفاح المسلح.

وتكشف اللغة الحوارية عن التنافر في مستوى الوعي والفهم بين جيل إسماعيل الابن، وجيل إبراهيم الأب، واختلاف الرؤية في حل الصراع مع العدو.

فإبراهيم الأب يرفض أن يتعامل مع القيادة الشابة التي نهته عن العمل في المستوطنة، وظل يركن إلى وعودات الأنظمة العربية، متحملاً لأجل ذلك إهانات يعقوب المتكررة، وضغط مجتمعه الذي أصبح ينظر إليه على أنه عميل للعدو.

وحجته كما يصرح: "أنا أشتغل في أرضي، لا مِنْ أجل يعقوب، يعقوب وأبو يعقوب وابن يعقوب رايحين يزولوا، والأرض تبقى لإسماعيل وأكرم ومحمد، التاريخ لا يكذب، ستتحقق النبوءة"[5].

هذا الشكل من التفكير الخرافي الذي نجده عند إبراهيم كان علامة جيله، فالتغيير لا يمكن أن يكون من الداخل، كما يرون، لأن اليد لا يمكن أن تلاطم المخرز، والمعجزات قد تحصل في أية لحظة، والريشة في المصحف قد تلد الكثير من الريشات: "قلنا رايحين ينسحبوا بعد سبع أيام، أو سبع أسابيع، أو سبع أشهر، قالوا لنا حطوا ريشة نعامة في المصحف رايحة اتخلف سبع ريشاث، خذوا الريشات وسبع سمعات، واضووا ضريح أبو خروبة، ما بتفتحوا عنيكم إلا واليهود زايلة" محمود الحلاق[6].

أما جيل إسماعيل فيرفض مثل هذه الخرافات، ويثور عليها: "من وضع هذه الخرافات في رأسك؟ أي نبوءة تنتظر؟ لن تنزل ملائكة من السماء تحارب الإسرائيليين، لن يزولوا بمعجزة، ولن تكون بدر ثانية"[7].

---

[5] نفسه، ص13.

[6] نفسه، ص49-50.

[7] نفسه، ص17.

ويلاحظ كثرة الاسترجاع الداخلي عند إسماعيل، وهذا ناجمٌ عن توتر الشخصية وعدم استقرارها، فالزمن عندها يسير في خطوط غير متوازية، وغير مستقرة.

وأمُّ إسماعيل تعدُّ صورة للمرأة التقليدية التي لا تخرج في تفكيرها عن اهتمامات أسرتها، ولا تبحث في أمور السياسة أو الفكر، وخطابُها اللغوي يكشف عن مستواها هذا. فهي تذهب إلى ضاربات الحصى، وقارئات الفنجان؛ وتسأل عن ابنها صالح، وقد تكون إجابة ضاربات الحصى مقنعة وحاسمة، تقول: "يختي ستر الله عليك، شوفي لي صالح طيب واللا ميت، يا مِنْ درى بشوفك يا صالح، وتجيب ضاربةُ الحصى: "صالح نايم في ظل صخرة ومسبل عينيه، وحمامة بيضة بترفرف عليه، ارض بحكم ربك يا أم إسماعيل، والله يكون بعونك[8].

أما أمل الطالبة الثائرة ليس على الاحتلال وحده، بل أيضاً على الظلم الاجتماعي الذي يحرم البنت من اختيار شريك حياتهاــ لم تنفعها ثقافتها، وتساوت مع غيرها من البنات اللواتي حُرمن من التعليم والثقافة. والذي يستمع إلى صوتها الواعي في الرواية يستهجن ما حدث معها فيما بعد.

تقول: "الملابس التي أرتديها لا تمثلني بل تمثل المجتمع، يوماً ما سأرتدي الملابس التي تعبر عن شخصيتي، أنا لستُ أمل التي تبدو الآن للناظر، أنا أمل التي ستكون"[9].

هل تستطيع أمل هذه ألا تكون زاهية البدوية الثانية؟

هذا الاسم لطالما أرقها، واستنطق فيها كلمات كثيرة، وأثار لديها أسئلة شتى.

---

[8] نفسه، ص 10.

[9] نفسه، ص8.

لقد سُلبت زاهية حق الدفاع عن نفسها، وذُبحت كالدجاجة. لم تقف أمام محكمة، ولم يسمع صوتها سوى حجارة الوادي، التي سال عليها دمها، شهود الجريمة عددهم واحد، الأصح واحدة، وهي حماتها التي رأتها مع شاب يمر من جانب البئر، اقترب الشاب وطلب شربة ماء، أسقته، وانصرف، هذه تهمتها، لكنها حُرّفت على لسان حماتها لتصبح قبلاتٍ. "رأيتها مع فلان، وتعمل كذا وكذا".

اجتمع أبوها وأمها ومختار البلد، وقرروا ذبحها بصمت، هذا المجتمع الذي قتل زاهية البدوية هو نفسه الذي ستواجهه أمل في موضوع زواجها: "لا أريد أن أتزوج لا من ابن عمي ولا من غيره". الأم: "أبوك غلط لابن عمك ومش رايح يتراجع عن رأيه، الأفضل غيري رايك...

- والله لو قطعوا رأسي عن جثتي فلن أتزوجه".
- اصحِ أبوك يسمع هالكلام منك".
- سوف أقولها في وجهه عندما يعود من المستعمرة، سوف أقولها لعبدالجبار الذي اخترتموه لي.
- الناس بعايرونا بقولوا البنت قوية بتطلع عن رأي أمها وأبوها....

وتستجمع أمل أنفاسها لتنقل رأيها لأبيها، وبعدها، فليحدث ما يحدث، المهم ألا تتزوج من عبد الجبار.

وأخيراً تقف أمام والدها قائلة: "لا أطمع أن أحكم مكانك في البيت، لكن لي حق الرفض والموافقة عندما يكون الأمر يتعلق بحياتي، وإلا فما هو الفرق بين الأرض المغتصبة، والبنت المكرهة على الزواج.

- "هذا كلام المتعلمين لا أفهمه، بكره إنزلي مع أمك وحماتك على المدينة، واشتري جهازك واصحي تفتحي ثمك مرة ثانية"[10].

[10] نفسه، ص19 وما بعدها.

تُرى ما رأي إسماعيل فيما يجري: "خطبتك من عبدالجبار لا تنفصل عن قضايا التحرر الاجتماعي، وهي جميعاً قضايا تتداخل مع القضية الكبرى، القضية الوطنية... فموقفي المبدئي هو أنّ فسخ الخطبة مهم كاسترجاع الأرض..."[11]

ويوماً بعد يوم تزداد مأساة الطالبة، ويتعمق شعورها بالإحباط: "لن يجرؤ أحد أن يخطبني وأنا في هذا الوضع، أنا حسب العادات والتقاليد ملك لعبد الجبار، ولن يجرؤ أحدٌ أن يتعدى حدود ملكيته"[12].

ويأتي الحل من أمريكا على يد أستاذ الفلسفة في جامعة بيرزيت البروفسور بوزول، وهو أستاذ جامعي مثقف، تقمص شخصية الناطق باسم منظمة حقوق الإنسان، وقدم لها تشخيصاً علمياً لمشكلتها، وأتبعه بحلٍّ فردي: "مشكلتك في الأساس ناتجة من الظلم البيولوجي والسيكولوجي الذي يمارسه عليك الرجل... ابحثي عن خلاصك الفردي. أنتِ جميلة، وضميري الأمريكي لا يسمح لي بأن تكوني زوجة رابعة لرجل مسن أو تجبري على الزواج من ابن عمك، أنتم أيها العرب ما زلتم تعيشون في القرون الوسطى، عادات وتقاليد وكلام فاضي، خلاصك الفردي في يدي، نتزوج، وتصبحين أمريكية...."[13].

وكإبليس يحاول اصطيادها بأي شكل بعد أن أتعبتها الظروف، وذهبت لمقابلته في فندق أوزريس ببيت لحم. جادلها بالمفارقة الحضارية بين الشرق والغرب، وجعل الإرث الاجتماعي العربي يسلب إنسانه حقوقه، ويتركه متخلّفاً.

---

[11] نفسه، ص21.

[12] نفسه، ص23-24.

[13] نفسه، ص44.

"أي شرف؟ مساكين أنتم يا عرب تقعون في شراك فهمكم للشرف، في نفس المصيدة التي تنصبونا للغير، أي انتهاك للشرف عندما تمارس المرأة حقها في الحياة؟... هل تعلمين أنه لا يوجد في أمريكا عذراء واحدة فوق الخامسة عشر؟ من يمتلك شرفاً العرب أم الأمريكان؟ من يمتلك العلم والتقدم والحضارة العرب أم الأمريكان"[14].

وبعد هذه العبارات الخادعة سقطت الطالبة الثائرة، وتنازلت عن جسدها لمثقف أمريكي وعدها بالزواج والمساعدة، واستيقظت على سفره إلى أمريكا تاركاً في رحمها جنيناً، مشكِّلاً قضية جديدة لم تكن بالحسبان. ثُمَّ تنتهي حياتها بصمت بعد أنْ قُطِّع الجنين في بطنها أثناء الولادة، وهي متوارية عن الأعين.

ويلاحظ أن إسماعيل حاول أن يمارس دور المثقف الملتزم بقضايا المرأة، ومن ذلك حقُّها في اختيار شريكها، لكنه دورٌ سلبي لم يتجاوز التعاطف مع أخته، وتساوى مع المشاهد. وهذا يدفعنا لسؤال مشروع، وهو: ما حقيقة الوعي الذي يمتلكه إسماعيل؟ هل هو وعيٌ زائف ومؤقت أم أنه وعي حقيقيٌّ وجذري؟[15]

وبعد، فعلى الرغم من أن هذه الرواية تطلعنا على ثقافة صاحبها، وتنوع معارفه، لكنها وللأسف امتلأت بالأخطاء النحوية والإملائية، وضعف في الصياغة، وهذا ما حدا بأحمد حرب لدفعها إلى الأستاذين "عيسى أبو شمسية وعمر مسلم، لمراجعتها وتدقيقها، وقد ساهما بعد التدقيق والأسلبة في إخراجها في طبعة ثانية أكثر دقة، وقد وقفت بعد المقارنة بين الطبعتين الأولى عام 1987، والثانية عام 1994، على أخطاء كثيرة أورد بعضها للتمثيل لا للحصر:

---

[14] نفسه، ص61.

[15] سليم النجار: قراءة في الرواية الفلسطينية الحديثة، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998، ص37

- ط1:- لم تكترث الصحيفة لذكر اسم والده أو عائلته لاعتقادها أن إسماعيل علماً وطنياً في غنى عن التعريف.
- ط2:- لم تكترث الصحيفة لذكر اسم والده أو عائلته لاعتقادها أن إسماعيل علم وطنيٌ في غنى عن التعريف.
- ط1: لماذا يحضر أحداً من الجماعة؟
- ط2: لماذا يحضر أحدٌ من الجماعة؟
- ط1: يديه في جيبي بنطاله.
- ط2: يداه في جيبي بنطاله.
- ط1: لاعتقادهم أن مشاكل السجن وعناءه تكفي لتعذيبه.
- ط2: لاعتقادهم أن مشاكل السجن وعناءه يكفيان لتعذيبه.
- ط1: لكن يا بني زي ما انت شايف الأيدِ القاصرة ما تلاطم مخرز.
- ط1: لكن يا بني زي ما انت شايف الأيدي القاصرة لا تلاطم مخرز.
- "ما أقرب الليلة بالبارحة".
- ط2: "ما أشبه الليلة بالبارحة".
- واخد... بحابليم.
- ط1: واخد... مخابليم.
- ثُمَّ جلسا مقابل بعض على أرائك خشبية.
- ط2: ثُمَّ جلسا متقابلين على أرائك خشبية.
- ط1: على صعيدٍ آخر خصصنا يوماً من كل عام، الثلاثون من آذار.
- ط2: على صعيدٍ آخر خصصنا يوماً من كل عام، الثلاثين من آذار.
- ط1: ولكن يا رفيق النضال تواجهنا مشكلتان تهددان بفشل مساعينا ونأمل أن تساعدنا في حلها.
- ط2: ولكن يا رفيق النضال تواجهنا مشكلتان تهددان بفشل مساعينا ونأمل أن تساعدنا في حلهما.
- ط1: لأن الفهم السليم للثورة يستوجب وحدة جميع فئات الشعب المتأثرة بالاحتلال.

- ط2: لأن الفهم السليم للثورة يستوجب وحدة جميع فئات الشعب المتأثر من الاحتلال.
- ط1: يوجد الآن وفي هذه اللحظة أكثر من مليونين فلسطيني يعيشون على أرض فلسطين.
- ط2: يوجد الآن وفي هذه اللحظة أكثر من مليوني فلسطيني يعيشون على أرض فلسطين.
- ط1: رياح وبروق ورعود.
- ط2: رياح وبرق ورعود.
- الأرض تكاد أن تهتز.
- الأرض تكاد تهتز.
- شعر برغبة جامحة بأن يلمس رؤوس الزرع.
- ط2: شعر برغبة جامحة في أن يلمس رؤوس الزرع.
- ط1: أزاح الثلج واقتطف واحدة في يده.
- ط2: أزاح الثلج وقطف واحدة بيديه.
- ط1: أمّنت له سرير في مستشفى الرحمة.
- ط2: أمّنت له سريراً في مستشفى الرحمة.
- ط1: يتفحصان شجرة أو يزيحا الثلج عن قاع أخرى.
- ط2: يتفحصان شجرة أو يزيحان الثلج عن قاع أخرى.
- ط1: انتظر عودةَ أبيه وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وباقي أفراد الأسرة مجتمعين حول موقد النار.
- ط2: انتظر عودةَ أبيه وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وباقي أفراد الأسرة مجتمعون حول موقد النار.
- وعادة للبيت مباشرة.
- ط2: وعادت للبيت مباشرة.
- لم تلتفت أمل لهما.

- لم تلتفت أمل إليهما.
- ط1: لن يجرأ أحد أن يخطبني.
- ط1: لن يجرؤ أحد أن يخطبني.
- ط1: لكنني لم أرميها.
- ط2: لكنني لم أرمها.
- ط1: تلوح بأيديها.
- ط2: تلوح بيديها.